المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية
رت م د إ: EISSN: 2716-8506
رت م د: ISSN : 2716-7984
المجلد08/ العـدد: 01 (السنة2026)، ص ص: 12-351

الأحوال الاقتصادية والآثار العمرانية في المدينة المنورة خلال عصري الأيوبيين والمماليك (567-923هـ / 1172 – 1517م)

Economic conditions and urban effects in Medina during the Ayyubid and Mamluk eras (AH / 1172 - 1517 AD 923-567)

د. إبراهيم بن علي الربعي[1]
D. Ibrahim bin Ali Al-Rubai
e.alrobei@iu.edu.sa
https://orcid.org/0009-0001-7418-1962

تاريخ الاستلام: 2026/02/15 تاريخ القبول:2026/02/26 تاريخ النشر: 2026/06/30

ملخص: يهدف البحث إلى وصف وتحليل المشهد الاقتصادي للمدينة المنورة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، ويرصد التطورات التي شهدتها الأنشطة الاقتصادية المتعددة وانعكاسها على المظاهر الحضارية لا سيما العمرانية.
وقد تمثل النشاط الزراعي في دراسة مصادر المياة والمناطق الزراعية وأهم المحاصيل بالإضافة إلى النشاط الرعوي والحيواني، والذي يعد ركنا أساسياً من أركان الحياة الاقتصادي في المدينة، وأما النشاط الحرفي ـ وإن كان يدوياً بدائياً ـ فقد تمثل في التشييد والبناء والنجارة وصناعة الحلي والمنسوجات وغيرها من الصناعات، كما كان النشاط التجاري أوسع انتشاراً وازدهاراً في العصر المملوكي، وخصوصاً بعد تشغيل ميناء ينبع، حيث شمل نطاق التجارة الداخلية والخارجية، من وردات وصادرات، وتخلص الدراسة إلى أن هذا التنوع الاقتصادي مثل ركيزة أساسية في النهضة العمرانية التي شهدتها المدينة المنورة، من بناء المنشآت المائية كالآبار والعيون والبرك، أو المنشآت الدينية والتعليمية والصحية، كالمساجد، والمدارس، والأربطة، والبيمارستان.

كلمات مفتاحية: الأنشطة الاقتصادية- العمران- المدينة المنورة- العصرين الأيوبي والمملوكي.

Abstract: This study examines the economic landscape of Madinah during the Ayyubid and Mamluk periods, analyzing the structure and development of key economic sectors and their impact on the city's urban and civilizational transformation. It investigates agricultural production through an assessment of water resources, cultivated lands, and principal crops, alongside pastoral and livestock activities that constituted a central pillar of the local economy.
The study also explores craft production, which, although largely manual and based on traditional techniques, played a significant role in construction, carpentry, jewelry making, textile manufacturing, and related industries.

Commercial activity, particularly during the Mamluk period, experienced notable expansion—especially following the revitalization of the port of Yanbuʿ—facilitating both domestic and international trade, including import and export networks.

The findings suggest that this diversified economic structure provided the material foundation for Madinah's urban growth and civilizational development. This prosperity was reflected in the construction and maintenance of water infrastructure (wells, springs, and reservoirs) as well as in the establishment of religious, educational, and medical institutions, including mosques, madrasas, ribats, and bimaristans.

Keywords: Economic activities - urbanization - Medina - the Ayyubid and Mamluk eras.

1. مقدمة:

شهدت المدينة المنورة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي بعض التطورات الاقتصادية التي انعكست على المظاهر العمرانية، وبما أن المدينة المنورة هي إحدى مدن الحجاز، فقد تشابهت معه في الأنشطة والأنظمة الاقتصادية التي يمارسها السكان، بالإضافة إلى التشابه في الناحية العمرانية.

وسوف تعالج هذه الدراسة عدة محاور مهمة، ارتبطت بالأنشطة الاقتصادية والعمرانية في المدينة المنورة خلال تلك الفترة ما بين نشاط زراعي وصناعي وتجاري وعمراني، فأما النشاط الزراعي، فقد تناول الحديث عن مصادر المياه في المدينة المنورة – الآبار والعيون– وكذلك أهم المناطق والمحاصيل الزراعية وبالرغم من محدودية النشاط الصناعي والحرفي في بعض الأحيان، إلا أنه كان متنوعاً ما بين البناء والنجارة وصناعة الحلي والمجوهرات والصناعات الغذائية والمنسوجات والمصنوعات الجلدية والفخارية، وغيرها من الحرف، وقد تنوع النشاط التجاري في العصر الأيوبي ما بين تجارة داخلية وخارجية؛ لكن ازدهاره في العصر المملوكي كان أكثر، وخصوصاً بعد استخدام ميناء ينبع بدلاً من ميناء الجار، بالإضافة إلى تربية الحيوان والرعي، واللذان يمثلان ركناً أساسياً من أركان الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة بصفة خاصة، ومجتمع بلاد الحجاز بصفة عامة.

وتهدف الدراسة علاوة على بيان ما سبق إلى رصد أثر الأحوال الاقتصادية على النشاط العمراني، والذي تمثل في بناء المنشآت المائية كحفر الآبار والعيون والبرك، أو المنشآت الدينية والتعليمية كالمساجد

والمدارس والأربطة التي وفرت السكن والاستقرار لكثير من الطلاب الوافدين والمجاورين والحجاج والفقراء، ونظراً لأهميتها الخدمية الجليلة فقد أوقف عليها السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم من الأغنياء الكثير من الأوقاف لضمان استمرارها في تأدية وظيفتها.

2. الأحوال الاقتصادية في المدينة المنورة خلال عصري الأيوبيين والمماليك.

حينما نتحدث عن الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة خلال عصري الأيوبيين والمماليك، نجد شحاً في المادة العلمية عن تلك الفترة، غير أنه يمكن دراستها من خلال المتناثر في المصادر على النحو التالي.

1.2 . النشاط الزراعي.

أرض المدينة المنورة بركانية تشتهر بالخصب والنماء، وتتخللها وديان كثيرة تمدها بالماء، أما المناخ فهو حار صيفاً، بارد شتاءً، وتسقط أمطارها في أوقات متفاوتة، وقد تنزل على هيئة سيول عارمة في بعض الأحيان، الأمر الذي جعل الزراعة متنوعة، إذ هي من أهم الأنشطة الاقتصادية في المدينة منذ صدر الإسلام، عمل أهلها فيها وساعدهم على ذلك توافر المقومات الزراعية الأساسية كالتربة الخصبة ومياه الأمطار والآبار والعيون، فكثرت الحدائق والبساتين وتعددت المحاصيل، وكانت البساتين صغيرة المساحة تعرف بالحوائط وكل بستان به بئر وحصن لحمايته. (إدريس، 1982م، 203- 204).

كما انتشرت الزراعة في بطون الأودية، وأجود أراضي المدينة؛ الجهة الجنوبية ناحية قباء والعالية، والجهة الشمالية والشمالية الغربية في الجرف والغابة والخليل ووادي العقيق، والعيون. (العناقرة، 2006م، 178).

ـ **مصادر المياه بالمدينة المنورة:** عُرفت المدينة بطبيعتها الزراعية، الناتجة عن توفر المياه من الأمطار والآبار والعيون، وتعتبر الآبار مصدر الماء الرئيس حيث استخدمت للشرب والزراعة منذ العهد النبوي واستمرت حتى العصر المملوكي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الآبار التالية:ـ

بئر رومة: تقع أسفل وادي العقيق قريبة من منطقة الأسيال، وحولها آبار طيبة الماء وعجيبة الوضع والبناء، أستخدمت منذ العهد النبوي حتى طمرتها الأتربة في القرن السابع الهجري. (ابن النجار، 1996م، 83؛

السمهودي، 1984م، 971/3؛ المراغي، 2002م، 296)، ونقضت أحجارها وأُخذت ولم يبق من أثرها شيء ثم أعاد إصلاحها وتجديدها قاضي مكة: شهاب الدين محمد بن محمد الطبري سنة 750هـ/1349م، فرفع بناءها ونزحت فكثر ماؤها. (الفاسي، 1986م، 1/3).

بئر أريس (بئر الخاتم): تقع مقابلة لمسجد قباء جنوب شرق المدينة وعندها مزارع تسقى من مائها العذب، جدَّدَها الشيخ صفي الدين أبو بكر بن أحمد السلامي سنة 714هـ/1314م وبني لها درجاً ينزل إليها من يريد الشرب والوضوء. (الفيروز أبادي، 1969م، 2/ 615- 617؛ السخاوي، 1957م، 8/ 336)، وعلى الدرج قبو يقال إن بانيها هو نجم الدين يوسف الرومي وزير الأمير طفيل. (النهروالي، 1989م، 616؛ ابن فرحون، 1434هـ، 326).

بئر حاء: تقع شمال سور المدينة، كانت في تلك الفترة تقع وسط حديقة صغيرة عندها نخلات ويزرع حولها، وهي ملك لنساء من النويريين من مكة فأصبحت تعرف ببئر النويرية، وأوقفت على الفقراء والمساكين والزائرين (ابن النجار، 1996م، 73؛ المراغي، 2002م، 291)، وظلت تعمل حتى أوائل القرن التاسع الهجري، ولكن في النصف الثاني منه تعطلت (السمهودي، 1984م، 964/3)، غير أنها عادت بعد ذلك حيث ذكر قطب الدين الحنفي، أنها موجودة ومستغلة أثناء إقامته بالمدينة سنة 935هـ (النهروالي، 1989م، 61) وهي اليوم في داخل المسجد النبوي الشريف.

بئر البصة : ظل يستخدمها أهل المدينة حتى دمرها السيل، ثم أعاد الشيخ عزيز الدولة ريحان البدري شيخ خدام الحرم الشريف حفرها وتجديدها أواخر القرن السابع الهجري وأوقفها لخدمة الفقراء والزائرين.(المراغي، 2002م،289؛ السمهودي، 1984م، 955/3؛ النهروالي، 1989م، 64- 65).

بئر غَرس: تقع شرق مسجد قباء داخل مزرعة المستظل، كانت ملكاً لأحد أبناء المدينة ثم خربت جراء السيل، فجددت وكثر بها الماء، ثم خربت ثانية فاشتراها الخواجا الحسين الكيلاني وعمرها وأحاطها بحديقة، وجعل لها درج ينزل إليها من داخل الحديقة وخارجها، وأوقفها سنة 882هـ/ 1477م لتخدم أهل المدينة. (المراغي، 2002م،288؛ السخاوي، 1957م، 2/ 337؛ السمهودي، 1984م، 981/3).

بئر العهن: سمي العوالي، وماؤها مليح عذب يأتي من الجبل وتقع ضمن أملاك ابن الزمن متولي عمارة المسجد النبوي أيام السلطان قايتباي. (السخاوي، 1957م، 1/ 116).

بئر السقيا: تقع على يسار المار إلى بئر علي، جددها التاجر حسن بن إبراهيم القاهري سنة 886 هـ/1481م (السخاوي، 1957م، 1/ 116)، ويقال إن بعض فقراء العجم هم من قام بتجديدها سنة 878هـ/1474م فسميت بئر الأعاجم (السمهودي، 1984م، 973/3؛ حافظ، 1996م، 90).

بئر بُضاعة: كانت جارية ومستغلة في أواخر العصر الأيوبي وبداية المملوكي، اشتراها شيخ الخدام شاهين شجاع الدين الجمالي ومعها حديقتين إحداهما شمال البئر والأخرى في جنوبه، ثم جعلهما حديقة واحدة وأدخل البئر فيها، واتخذ بها مسجداً وبركة ورفع فمها وبني منزلاً وقد أصبحت فيما بعد داخل نطاق المزارع والحقول التي يملكها أهل المدينة، وبالقرب من البئر حديقة لأمير المدينة (ابن النجار، 1996م، 78، 79؛ السخاوي، 1957م، 3/ 272؛ السمهودي، 1984م، 958/2؛ حافظ، 1996م، 181).

وهناك آبار على (ذو الحليفة) وغيرها من الآبار العذبة تروي بها النخيل والزروع، كما تم حفر آبار أخرى للتوسع في زيادة الرقعة الزراعية وتربية الماشية في ضواحي المدينة، وقد استخرجت المياه من الآبار بالدلاء، وكان المزارعون يستخدمون الحيوانات الجمال أو الثيران في سحب الماء من الآبار الكبيرة الواسعة لري البساتين والحقول .(المراغي، 2002م،293؛ النهروالي، 1989م، 62).

العيون: تشكل العيون مصدراً أساسياً للمياه في المدينة المنورة، ومن أهم هذه العيون مايلي-:

عين النبي: تقع خارج المدينة وكان يطلق عليها عين كهف بني حرام، كانت عامرة خلال القرن السابع؛ لكنها اندثرت واختفى أثرها خلال القرن التاسع الهجري (الفيروز أبادي، 1969م، 3/ 974- 975؛ السمهودي، 1984م، 140/2 ، 141؛ الخياري، 1991م، 257)، وهي قريبة من المساجد السبعة.

عين الزرقا: عين الأزرق أو الزرقاء: تقع في قباء، وأصلها بئر في حديقة نخل غربي مسجد قباء، كانت موجودة منذ العصر الأموي، أجراها السلطان المملوكي قايتباي سنة 886هـ /1482م على يد ابن الزمن(السخاوي، 1957م، 6/ 413).

عين الشهداء: تقع بجوار قبور شهداء أحد –رضي الله عنهم– استخدمت منذ العصر الأموي، ثم اندثرت فقام نور الدين زنكي بحفر عين أخرى تحت جبل أحد تحمل اسمها، وظلت جارية حتى أوائل القرن العاشر الهجري (الخياري، 1991م، 209، 210).

•**عين الخيف:** تقع في بطن وادي بطحان غربي جبل سلع، وتأتي من عوالي المدينة وتسقي مزارع النخيل حولها (بركة،2015، 72؛ المديرس،2001، 89، 90) هذا فضلاً عن الأمطار التي يعتمد عليها في زراعة أرض المدينة وتربية الحيوانات، وتتجمع هذه الأمطار في الأودية المختلفة، منها وادي العقيق ومهزوز ووادي العاقول والنقمي ووادي بطحان.

ـ المناطق الزراعية وأهم المحاصيل بالمدينة المنورة:

تتميز المدينة المنورة بالتربة الخصبة وتعد واحة غناء صالحة للزراعة لاسيما في الأودية والواحات، وتعد المنطقة الجنوبية من أجود أنواع الأراضي الزراعية، خاصة إذا حرثت وخصبت جيداً، وكذلك المنطقة الشرقية والمنطقة الشمالية الغربية ووادي العقيق والعيون التي تعد أكثر المناطق زراعة للنخيل.

ومن المناطق الزراعية واحة خيبر، ووادي القرى، والسيالة، ورهاط، وبها العديد من الحدائق وتزرع النخيل واللفت والجزر والقرع، وهناك الكثير من المزارع المحيطة بالمدينة يطلق عليها حدائق، وكل حديقة تشتمل على بئر بها، بل إن بعضها يسمى باسم البئر الواقع فيها مثل: حديقة بئر أريس، وحديقة بئر بضاعة، وحديقة بئر زمزم بالحرة المعروفة ببئر فاطمة، وحديقة بئر أيوب المعروفة بحديقة دار فحل، كما كانت المدينة محاطة ببساتين النخيل وأهمها ما كان في الجنوب والشرق أي في قباء، وعلى الطريق إليها من جهة العوالي تنتشر الحدائق الغناء المتصلة نتيجة الأمطار، ووجود ينابيع المياه، مما أدي إلى تنوع المحاصيل الزراعية (العناقرة، 2006م،131-133؛ بركة،2015، 73،74؛ المديرس،2001، 94، 95).

ويُعد التمر من أهم المحاصيل الزراعية في المدينة المنورة وحيث يزرع النخيل بمساحات كبيرة اعتمد عليه سكان الحضر والبادية في طعامهم، وأما الشعير فيعد المحصول الثاني لأهل المدينة، وكانوا يزرعونه تحت النخيل نظراً لاتساع المساحات البينية، وكان محصوله يسد حاجة السكان الغذائية، إلى جانب القمح والذرة والعنب وبعض أنواع الفاكهة والخضروات من رمان وموز وليمون وبطيخ بالإضافة إلى القثاء والبقول

والقرع والبصل (عمر، 1980م، 102، 103؛ الشريف، 2003م، 293، 294؛ حسن، 200م، 118)

2.2: النشاط الصناعي والحرفي.

يغلُب طابع البداوة على الحياة في شبه الجزيرة العربية، لذا لم تتقدم بها الصناعة، لأنها تحتاج إلى مواد خام معدنية وزراعية وحيوانية، وكذلك لابد من توفر الأسواق، ويبدو ذلك واضحاً من ندرة المادة العلمية عن الصناعة في المدينة، والمعلومات المتناثرة عنها، مما يدل على أنها كانت محدودة ومقتصرة على بعض السلع والمنتجات، وهي الصناعات نفسها التي كانت موجودة منذ صدر الإسلام مع بعض التطور البسيط، ولذا ظلت الصناعة تقليدية يدوية في العصر الأيوبي، تطورت تطوراً طفيفاً في العصر.

البناء والنجارة: من مستلزمات الحياة عند إعداد المساكن والمنشآت. وفي العصر المملوكي وجد في المدينة المنورة من اشتهر بممارسة تلك الحرفة مثل: إبراهيم بن أحمد المدني والشيخ علي الفراش اللذان حفرا أساس منارة باب السلام بالمسجد النبوي سنة 706هـ/1306م، وعلي الفراش كان يعمل بالبناء والنجارة والحجارة وسمي علي الحجار الفراش.(السخاوي، 1957م، 1/ 280، 281؛ السمهودي، 1984م،2/ 528).

أما النجارة فكان النجارون يصنعون الأبواب والأثاث المنزلي وكل ما يتعلق بالخشب ويتم ذلك في بيوتهم وحوانيتهم (السيف، 1983م،164)، ومن النجارين المشهورين؛ أبو بكر بن يوسف بن الفتيان العسقلاني المصري، قدم للمدينة لتجديد المسجد النبوي سنة 666هـ/1267م بأمر من الظاهر بيبرس، فأقام المنبر الجديد (ابن فرحون، 1434هـ، 272؛ ابن حجر، 1997م، 1/ 286).

وتعد **صناعة السبح** من الصناعات الخشبية المزدهرة بالمدينة في فترة الدراسة، ويطلق على من يمتهن هذه الحرفة "الحزاز" وهو يقوم بحز الخشب بالمخراط إلى قطع صغيرة ثم يضعها في خيط لتكون سبحة يبيعها للزوار والواردين مثل محمد الحزاز (ابن فرحون، 1434هـ، 239، 240).

فضلاً على حرفة الدهانة المرتبطة بالعمارة والنجارة وقد عمل بها عدد من المجاورين مثل الشيخ صالح بن إسماعيل بن إبراهيم الكناني الشافعي المدني المصري الذي قام بدهان الحرم النبوي.(ابن فرحون، 1434هـ، 149؛ السخاوي، 1957م، 3/ 302، 303).

صناعة الذهب: نشطت هذه الصناعة لتوفر خام التبر بالقرب من المدينة، وكان لها سوق بالقرب من سوق العطارين في المدينة المنورة ويعمل به حوالي ثلاثمائة صائغ (العباسي،1395هـ، 331)

الحدادة: تعتمد هذه الحرفة على استخلاص مادة الحديد من التراب وجمعة ثم صهره وتشكيله لاستخدامه في صناعة الأسلحة، وأدوات الفلاحة، وآلات الصيد، وبالإضافة إلى ما سبق فقد انتشرت بعض الصناعات الجلدية التي مارسها المجاورون من المغاربة (العناقرة، 2006م،146؛ المديرس،2001، 99، 100).

الصناعات الغذائية :كان لها أهمية كبيرة لأنها تلبي حاجات السكان من الغذاء، مثل صناعة السمن والزبد والجبن والتمور وغيرها (العناقرة، 2006م،147؛ حسن، 200م، 81).

صيد الأسماك وتجفيفها: كان يتم صيد الأسماك في البحيرات وتجمعات المياة بالمدينة ويطلق على صاحب هذه الحرفة " الحوات أو السماك ." (المديرس،2001، 103)، وممن اشتغل في هذه المهنة إبراهيم الحوات (السخاوي، 1957م، 1/ 201)، وقاسم التكروري وكان يصطاد في تجمعات الماء التي يربي فيها الحوت، وأما تجفيف السمك فكان يتم في الشمس ويملح أحياناً ويجفف ليؤكل وقت الحاجة (الفيروز أبادي، 1969م، 1267/3، 1268؛ السخاوي، 1957م، 5/ 426).

الغزل والنسيج : تعد من الحرف المهمة في المدينة المنورة لصناعة الملابس والمفروشات والخيام، وتعمل على تحويل الصوف والوبر والشعر إلى خيوط يتم نسجها على شكل أقمشة تصنع منها الملابس والنمارق والفرش، وكذلك من المهن المرتبطة بها مهنة الخياطة، علاوة على صناعة الحصير الذي لا يستغنى عنه في كل منزل (العناقرة، 2006م،152؛ حسن، 200م، 80)، وممن عمل بمهنة خياطة الملابس في القرن الثامن الهجري، أبو عبد الله محمد السلاوي (ابن فرحون، 1434هـ، 293؛ السخاوي، 1957م، 7/ 208).

العطارة: كان العطار يقوم بدور الطبيب والصيدلي وبائع العطور، وتستخدم مواد العطارة في الطعام والشراب والدواء، وهي إما محلية كالأعشاب البرية أو واردة، وكان بالمدينة سوق العطارين قرب سوق الصاغة (السمهودي، 1984م،2/ 736)، وهناك من العائلات من امتهن العطارة وتوارثوها أباً عن جد، ومنهم أسرة مشكور(ابن فرحون، 1434هـ، 298-300)، وأسرة مسعود الكجار الشكيليين(السخاوي، 1957م، 2/ 345، 6/ 283).

الحطابة: توفرت في المدينة الأشجار التي يقطعها الحطابون ويحتاجها السكان للتدفئة والطبخ في سوق الحطابين(السمهودي، 1984م،2/ 765)، وقد مارسها بعض المجاورين الفقراء، منهم محمد الهزميري (ابن فرحون، 1434هـ، 267؛ السخاوي، 1957م، 7/ 221).

السقاية :من الحرف الخدمية التي تعمل على توفير ما الشرب في المسجد النبوي وفي شوارع المدينة، وتوصيله إلى المنازل، وممن عمل بها بالمسجد النبوي أبو حسين محمد السقاء (ابن فرحون، 1434هـ، 320-322)، وحسين بن علي بن رستم الشيرازي وولداه حسن ومحمد (السخاوي، 1957م، 6/ 139).

نسخ الكتب وتجليدها: عمل بهذه الحرفة بعض طلاب العلم منهم، عبد الواحد الجزولي الذي أوقف كثيراً مما كتبه على رباط دكالة (ابن فرحون، 1434هـ، 118؛ السخاوي، 1957م، 4/ 476)، ومحمد أبو عبد الله البسكري اشتغل بالكتابة والنسخ، وأما تجليد الكتب فقد عمل به الشيخ محمد التلمساني المالكي (ابن فرحون، 1434هـ، 291؛ السخاوي، 1957م، 7/ 207، 214).

3.2: الثروة الحيوانية.

كان الرعي وتربية الحيوان ركن مهم من أركان الحياة الاقتصادية، حيث اهتم أهل المدينة بامتلاك الإبل وكانوا يرعونها على الأشجار والشجيرات (المقريزي،1934م، 1/ 247)، واستخدم أهل المدينة الجمل في التنقل ونقل المياة من الآبار للأراضي الزراعية نظراً لقوة تحمله في الظروف المناخية القاسية، وقد اتخذت

الإبل مقياساً للثروة فكانوا يقدرون بها أثمان السلع، ويتعاملون بها في تجارتهم وفي أسواقهم ويتم تقدير الديات والفدية والمهور بها (حرب، 1985، 124، 125؛ العناقرة، 2006م، 140).

كما وجدت الخيول، وكانت بحوزة أهل الغنى والثروة، وكان امتلاكها من مظاهر الزينة وبهجة الحياة الدنيا، فكثر جلب الخيل من البادية للبيع في المدينة، وكانت لها سوق خاصة، وتعد الخيول العربية من أجود وأقوى الخيول فضلاً عن تحملها عناء السفر الطويل والحرب (القلقشندي، 1914م، 4/ 254).

أما الأغنام فكانت المصدر الرئيس لتوفير اللبن واللحوم والصوف الذي يستخدمونه في نسيج بيوتهم وملابسهم وفرشهم ووسائدهم، وكانت تربى خارج المدينة في منطقة الغابة والنقيع، كما حرص أهل المدينة أيضاً على تربية الدجاج والحمام والأبقار والحمير (العناقرة، 2006م، 142؛ الشريف، 2003م، 297).

كذلك اتجه أهل المدينة لصيد البر وكان وسيلة من وسائل المعيشة، فقد اصطادوا الغزلان، والحمر الوحشية والأرانب وبعض أنواع الطيور (غوستاف، 2000م، 42، 43؛ حرب، 1985، ، 125).

4.2: النشاط التجاري.

احتلت التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي حيزاً مهما من نشاط أهل المدينة المنورة.

ـ التجارة الخارجية

منذ أقدم العصور وقوافل التجارة بين اليمن والشام تمر قريباً من المدينة المنورة، حيث إن موقعها المتميز جعلها معبراً للقوافل، وعلى الرغم من عمل معظم سكان المدينة بالزراعة، فإن الحاصلات الزراعية بها لم تكن تكفي حاجات سكانها، فقاموا باستيراد بعض السلع والمنتجات من بلدان أخري، ورغم أن المدينة المنورة ليست ساحلية، إلا أن مينا ينبع (الينبوع) والجار (الرايس) كانا ثغرين مهمين لها على البحر الأحمر.

ميناء الجار: كان معروفاً في الجاهلية إلا أهميته زادت بعد فتح مصر، حيث كان البحر الأحمر يعرف آنذاك ببحر الجار، ثم ضعف شأنه وسيطر عليه بعض الأعراب، وقتلوا أهل البلدة حتى اضمحل تماماً أواخر القرن السادس الهجري (الجاسر،1967م، 47-49؛ عمر، 1980م، 87، 88).

ويرجع اضمحلال شأن ميناء الجار إلى أوقات القحط والمجاعة بالحجاز في القرنين 5-6هـ/11-12م، كما تأثر بتوتر العلاقات السياسية بين الحجاز ومصر، كذلك تعرض الميناء للهجوم من قبل الصليبيين مرتين وحل محله ميناء ينبع (حسن، 2020م، 95-107).

ميناء ينبع: يقع ميناء ينبع على طريق الحج الشامي بالقرب من المدينة المنورة ويُعد دهليز المدينة على البحر الأحمر، وسمي بذلك لكثرة ينابيعه(ابن حوقل، د.ت، 1/ 41؛ السمهودي، 1984م،4/ 1334)، أما المدينة نفسها فتنقسم إلى ينبع النخل وينبع البحر، والتي لم تكن مشهورة قبل القرن السابع الهجري حتى صارت ميناءً المدينة الرئيس على البحر الأحمر في العصر الأيوبي وفي ذلك الوقت احتلت موانئ البحر الأحمر مكانة كبيرة في التجارة العالمية بعد أن أصبحت في أيدي المسلمين، وأصبحت مدينة ينبع سوقاً هاماً (السليمان، 1974م، 93)، وبحلول سنة 621هـ/1224م جعل سلاطين بني أيوب ينبع ميناءً رئيساً للمدينة، وأصبحت أغلب الغلال والمؤن تصل من مصر من خلاله، فأسهم هذا في ازدهار التجارة(الجاسر،1967م، 47- 50).

وقد أدرك الأيوبيون أهمية هذا الميناء فاشتروه من الأشراف الحسينيين وأقاموا فيه بعض المنشآت (ابن فهد، 1983م، 3/ 39؛ المقريزي، 1934م،1/ 215) وتوافدت عليه السفن وانتعشت التجارة به، عندها حاول الحسينيون عام 630هـ/1232م استرداده بالإغارة عليه غير أن الأيوبيين انتزعوه منهم بالقوة، وقاموا بتحصينه كي لا تسول للأشراف أنفسهم معادوة الهجوم، وذلك ببناء قلعة ووضعوا بها الجنود للدفاع عنه ولتوفير الأمان والاستقرار للسكان وللوافدين، ثم ازداد نشاط الميناء خلال العصر المملوكي، ففي سنة 700هـ/1300م أرسل السلطان قلاوون ثلاثة مراكب إلى ينبع محملة بالغلال والدقيق والعسل والسكر والزيت والحلوى (المقريزي، 1934م،1/ 215- 217)، وكذلك فعل السلطان المؤيد شيخ سنة 821هـ/1418م (الصيرفي، 1971م،2/ 413- 414).

ومن خلال كتابات الرحالة المسلمين يتبين لنا أن ميناء ينبع كان يستقبل المراكب المحملة بالغلال من سواحل الطور وهذه المراكب تدفع ضرائب لصاحب ينبع، مما أدي إلى ازدهارها وصارت كثيرة العمائر والأسواق بفضل الميناء (الجزيري، 2002م، 2/ 1415- 1417) مما أدي إلى زيادة عدد سكانها وازدهار النشاط التجاري بها وتعاظم أهميتها التجارية، كما استخدم ميناء ينبع في بعض الأحيان خلال العصر المملوكي بدلاً من ميناء جدة كميناء رئيسي للحجاز بسبب اختلال الأمن والاضطراب السياسي وارتفاع الضرائب والمكوس في مكة وجدة.

ونظراً لأهمية هذا الميناء فقد اهتم سلاطين المماليك بحمايته ففي سنة 875هـ/1470م عندما تعرض الركب المصري لمشقة عظيمة بسبب قلة الماء وارتفاع الحرارة ومات الكثير من الحجاج أرسل الأمير يشبك

الدوادار قافلة محملة بالزاد والماء لهم قرب ينبع (ابن إياس، 1982م، 3/ 51- 52)، وفي عهد الغوري بنى الأمير خشقدم خاناً للمسافرين بالقرب من ينبع سنة 916هـ/1510، (الجزيري، 2002م، 2/ 1417)، وأمر ببناء سورٍ وأبراجٍ على الميناء لتحصينه، لكن في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي تدهور حال الميناء وصار مجرد محطة لتموين المدينة المنورة بالغذاء(ابن إياس، 1982م، 5/ 95).

الواردات والصادارت –:

من السلع الواردة إلى المدينة في العصر الأيوبي من بلاد الشرق الأقصى وفارس واليمن: التوابل وخاصة الفلفل، والقرفة والقرنفل، والزنجبيل، والرواند والزعفران والعود الهندي وجوزة الطيب والكركم، وكلها من السلع المستخدمة في الطعام بكثرة في تلك الفترة، كذلك كانت العطور من؛ المسك وعود الند وخشب الصندل والعنبر، فضلاً عن الأحجار الكريمة، كما كان يأتي من اليمن أنواعاً من الزبيب الأسود والأحمر واللوز، بالإضافة إلى الحنطة والحبوب الأخرى، أضف إلى ذلك السمن والعسل وقصب السكر(ابن جبير،2000م، 119؛ ربيع، 1979م، 14- 16).

وأما عن صادرات لمدينة، فكانت في مجملها من حاصلات البادية، كالزيت والصوف والوبر والشعير والجلد والسمن، والخيول والجمال والخشب والجلود المدبوغة وتصدر إلى مصر، ، وأما الصادرات لليمن فهي العباءات والأقنعة والملاحف وغيرها منالملابس(الشريف، 2003م، 299، 300؛ عمر، 1980م، 96).

ـ التجارة الداخلية والأسواق.

يقصد بها التبادل التجاري بين أهل المدينة المنورة أو بينهم وبين جيرانهم من أهل القرى والبادية المحيطة، كذلك مع المدن المجاورة، مكة المكرمة وينبع وجدة، حيث يأتي إليها التجار لبيع وتبادل بضائعهم في موسم الحج والعمرة الرجبية، وتجارتها الأساسية هي السلع التي ينتجها سكانها من المحاصيل الزراعية والمصنوعات المحلية أو السلع المستوردة.

ويعد التمر بأنواعه أكثر سلع المحاصيل الزراعية مبيعاً لكثرته وجودته وتوافر الظروف الملائمة لزراعته في المدينة، كما كانت التمور وسيلة للتبادل بنظام المقايضة، حيث كان العرب يجلبون معهم اللبن والجبن والسمن والإبل والأغنام والخيول ويعودون للبادية ومعهم الأقمشة المتنوعة والحبوب مثل القمح والشعير والفواكه والمنتجات الصناعية (السليمان، 1974م، 102).

وعن الأسواق ذكرت لنا المصادر أن معظم الأسواق التي كانت في الجاهلية استمرت على حالها وربما تغير مكانها أو اسمها. فقد كان يوجد بالمدينة قديماً عدة أسواق منها:

سوق في بني قينقاع، ويثرب، وسوق زقاق بن حيين، ثم قرر الرسول صلى الله عليه وسلم اتخاذ سوق واحد للمدينة، وموضعه في نهاية الطريق إلى دور القياشين بالقرب من دور طلحة، وظل هذا السوق على حاله حتى العصر الأيوبي، وقد تعددت الأسواق في المدينة فيما بعد وتنوعت وتخصص بعضها في بيع منتجات محددة والبعض الآخر يباع فيه منتجات مختلفة ومنها: سوق باب السلام، سوق المناخة، سوق باب البلاط، سوق الصاغة، سوق العطارين، سوق الحطابين، سوق الفاكهة، سوق الخضارية، سوق الحبابة، وغيرها من الأسواق (السمهودي، 1984م،2/ 726، 747، 748).

ـ المعاملات التجارية.

كانت المقايضة طريقة التعامل التجاري بالإضافة إلى العملات المتداولة في مصر والشام آنذاك، ففي العصر الأيوبي ضربت دراهم ودنانير باسم السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 581هـ/1185م (ابن فهد، 1983م، 2/ 553؛ الفاسي، 1986م، 2/ 356)، في عام 622هـ/1124 م ضربت الدراهم الكاملية نسبة إلى الملك المسعود بن الملك الكامل الأيوبي، وكانت العملة في المدينة المنورة هي نفسها المستخدمة في مكة (القلقشندي، 1914م، 4/ 275، 276، 302).

ولقد أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي داراً لضرب العملة في مكة أواخر القرن 6هـ/12م، كما وجد نظام آخر في البيع والشراء ونقصد به " الصكوك"، وفيه تجمع أسماء المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم ويعد الأصل في سند الدين، وقد استخدمه التجار في مصر والحجاز وغيرهما(عبد المنعم، د- ت، 301). وقد ارتبطت المعاملات المالية في المدينة المنورة بما هو متداول في الدولة المملوكية كما كان الحال في الدولة الأيوبية، فاستمر استخدام عملات أيوبية مع العملات المملوكية الجديدة(القلقشندي، 1914م، 4/ 276)، أما عن الموازين والمكاييل، فقد كان المن وحدة الوزن المستخدمة المعروفة في جميع البلاد الإسلامية ويعرف كذلك "بالرطل"، ويتراوح وزنه ما بين 200 و130و120 درهم، وأما المكاييل فكانت الصاع والمد، والصاع أربعة أمداد، وكل مد يساوي رطلاً، ويباع بالصاع والمد الحنطة وسائر الحبوب (عبد المنعم، د- ت، 302، 303).

3. النشاط العمراني والمنشآت.

لم يقتصر النشاط العمراني والتجديدات وإعمار المدينة المنورة على زمن سلاطين الأيوبيين ومن قبلهم الخلفاء العباسيين، بل امتد هذا المظهر إلى سلاطين العصر المملوكي، وأولوه اهتماماً كبيراً، ويعد هذا من مظاهر التدخل المملوكي في المدينة المنورة، وامتداد نفوذهم فيها، ومن ناحية أخرى فإنه كانت من مظاهر اهتمام المماليك بالمدينة الشريفة ودليلاً على عاطفتهم نحوها. وتمثل ذلك في عدة أنشطة منها:

1.3. عمارة مساجد المدينة.

اهتم الخلفاء العباسيون بالحرمين الشريفين، فكانوا يرسلون الأموال لتجديد ما تهدم من الحرم النبوي، فنقرأ عن الخليفة العباسي الناصر لدين الله بأنه أرسل ألف دينار من الذهب الخالص لعمارة الحرم، كما كان يرسل عدداً من أرباب الحرف المختلفة بالمواد اللازمة والآلات لإصلاح أي خلل في الحرم وترميمه، وإجراء تجديدات فيه على نفته الخاصة (السمهودي، 1984م،2/ 647).

وقيل إن الخليفة الناصر كان يرسل أيضاً في كل عام أربعة آلاف دينار للصدقة وألفا وخمسمائة ذراع قطن لتكفين فقراء الموتى، علاوة عما يجهزه للعمارة، وما يعده من القناديل وزيت السيرج حوالي سبعة وعشرين قنطاراً ومن الشمع مائة وستون، والكثير من العود وأنواع أخرى من البخور بمقدار مائة مثقال لتبخير المسجد (القلقشندي، 1914م، 4/ 304)، كما شاركهم السلاطين والوزراء في هذه المهمة.

ففي عام 570هـ/ 1175م تهدم جزء من الحجرة الشريفة، فأرسل أمير المدينة إلى الخليفة العباسي يستشيره في ترميهما، فاستشار الخليفة الفقهاء فأفتوه بأن ينزل إليها رجل فاضل من القائمين على خدمة المسجد، فوقع الاختيار على الشيخ بدر الضعيف فوجد جدارها الغربي سقط، فصنع لبناً من تراب المسجد ورممه وأعاده، كما وجد عموداً من الخشب قد كسر بسبب انهيار الحائط، فحملوه إلى بغداد مع شيء من تراب الحائط (السمهودي، 1984م،2/ 569، 570).

وبعد وفاة الناصر لدين الله العباسي اهتم سلاطين مصر الأيوبيين بعمارة الحرمين ومجاوريهما اهتماماً بالغاً حيث قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بإرسال الغلال إلى المجاورين والفقراء بمكة والمدينة (الأصفهاني، 1979م،153، 154؛ المقريزي، 1934م، 1/ 64)،كما استمر إرسال كسوة الحجرة النبوية الشريفة في العصر المملوكي(ابن شداد، 1994م، 300)، وكان أول من كساها من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس فأرسل الكسوة في رمضان سنة 662هـ/ 1263م مع جمال الدين الصالحي، كما أرسل معه

الطيب والزيت وكانت الكسوة مصنوعة من الديباج للضريح النبوي وللكعبة الشريفة، كذلك كميات من القمح والدقيق للمساكين والمجاورين(العيني، 1994م، 1/ 376؛ المقريزي، 1934م، 1/ 512)، ثم أوقف الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون قرية بمصر سنة 743هـ/1342م، وجعل الثلثين لكسوة الكعبة الشريفة والثلث لكسوة الحجرة الشريفة والمنبر النبوي (السخاوي، 1957م، 1/ 105؛ السمهودي، 1984م، 413/2؛ ابن تغري بردي، 1992م، 10/ 85).

وظلت الكسوة ترسل كل سنة مع كسوة الكعبة المشرفة، واستمر ذلك حتى عهد المؤيد شيخ سنة 815هـ/1412م حينما ضعف الوقف فاشترط الواقف أن تكون الكسوة كل خمس سنوات، ثم كل عشر سنوات، إلى أن استقر الأمر على إرسالها كل سبع سنوات (المقريزي، 1934م 1/ 580، 773؛ القلقشندي، 1914م، 4/ 302).

كذلك تنافس سلاطين وأمراء المماليك في الإنشاء والتعمير والتجديد في الحرمين الشريفين وبالغوا فيه، ربما يعود ذلك إلى وفرة الأموال في الدولة، بالإضافة إلى رغبتهم في التقرب إلى الله وبأنهم حماة الدين لكسب محبة وتعاطف الناس وليثبتوا دعائم دولتهم.

بدأ بيبرس عهده سنة 659هـ/1260م بإصلاح ما أفسده الحريق السابق بالمسجد النبوي، فأكمل ما بدأه الخليفة العباسي وحاكم اليمن والمنصور علي بن أيبك، حيث كتب أمير المدينة إلى الخليفة ببغداد يخبره بحريق المسجد وتهدمه وطلب منه المساعدة لإعادة بنائه فأمر الخليفة بإرسال فريق من البنائين والنجارين والحدادين والصناع ومعهم كل الأدوات والمعدات اللازمة للبناء مع ركب الحج العراقي، لكنه لم يستكمل بسبب انشغال الخليفة بحرب التتار(القلقشندي، 1914م، 4/ 288؛ السمهودي، 1984م، 2/ 604؛ النهروالي، 1989م، 116، 120. ويذكر أن الحريق كان في سنة 651هـ/1252م).

أما المنصور علي وحاكم اليمن الرسولي فقد أرسلا الآلات والأخشاب على الفور لبناء أساطين وتقوية الجدران، وبعد سنوات أرسل حاكم اليمن منبراً جديداً، ولكن العمارة الشاملة الكاملة نُفِذت عندما تولي السلطان الظاهر بيبرس الذي أرسل الأمير علم الدين بالأموال وبعض لوازم العمارة.(الفيروز أبادي، 1969م، 2/ 453؛ السيوطي، 1968م، 2/ 96)، وفي سنة 661هـ/1263م أرسل الأمير جمال الدين محسن الصالحي ومعه ثلاثة وخمسين صانعاً ومعهم الحديد والرصاص والخشب الثمين والأموال اللازمة لنفقة الصناع لتجديد السقف وجعله من خشب الساج ولبناء مقصورة جديدة حول الحجرة النبوية

وأخرى حول بيت السيدة فاطمة الزهراء، كما أمر ببناء باقي المسجد من باب الرحمة إلى شمال المسجد ثم إلى باب النساء، وأكمل سقف المسجد (العيني، 1994م، 1/ 365؛ المقريزي، 1934م، 1/ 502)، ثم أرسل صاحب اليمن منبراً للمسجد النبوي وظل يخطب عليه مدة عشر سنوات، ثم استبدل بمنبر جديد للظاهر بيبرس واستمر باقياً حتى سنة 797هـ/1394م فلما أكلته الأرضة أرسل السلطان الظاهر برقوق منبراً جديداً (القلقشندي، 1914م، 4/ 288؛ السمهودي، 1984م، 2/ 407؛ المراغي، 2002م، 111، 112).

وعندما حج السلطان بيبرس سنة 677هـ/1278م ورأي الناس يلتصقون بالقبر الشريف بني حول الحجرة النبوية درابزين من خشب عُرِف بالمقصورة، ثم زِيدَ في ارتفاعها حتى وصلت السقف في عهد السلطان العادل كتبعا سنة 694هـ/1294م، وكانت المقصورة تجدد كل فترة مع المسجد، وقد أعيد صنعها من النحاس الأصفر المنقوش وزينت بالذهب والفضة والياقوت والزمرد.(الفيروز أبادي، 1969م، 2/ 464، 465؛ السخاوي، 1957م، 5/ 462).

فلما توالى السلطان المنصور قلاوون أقام قبة فوق الحجرة الشريفة سنة 678هـ/1279م بألواح خشبية وغلّفها بألواح من الرصاص وجددت عدة مرات بسب اختلال ألوح الخشب الرصاص، (السخاوي، 1957م، 2/ 330؛ السمهودي، 1984م، 2/ 608- 610؛ المراغي، 2002م، 126).

ثم قام الناصر محمد بن قلاوون بعد سنة 709هـ/1309م بإعادة إصلاح سقف المسجد النبوي، وفي سنة 729هـ/1329م أمر ببناء رواقين من أروقة المسجد فاتسع وانتفع الناس بذلك (السخاوي، 1957م، 6/ 450؛ السمهودي، 1984م، 2/ 605).

ثم خلع الظاهر برقوق سنة 797هـ/1394م المنبر الذي وضعه الظاهر بيبرس بالمسجد النبوي لتأثير الأرضة فيه ووضع بدلاً منه منبراً جديداً، كذلك أزال السلطان المؤيد شيخ سنة822هـ/1419م ذلك المنبر بآخر جديد(القلقشندي، 1914م، 4/ 288؛ السخاوي، 1957م، 1/ 103، 3/ 300).

وقد حدث خلل في الرواقين الذين بناهما الناصر محمد بن قلاوون فجددهما الأشرف برسباي، كما أمر بتسمير أبواب الدرابزين التي كانت على الحجرة النبوية الشريفة سنة 832هـ/1428م، وحدث خلل في سقف الروضة وسقف المسجد فقام السلطان الملك الظاهر جقمق بتجديدهما سنة 853هـ/1449م على يد الأمير بردبك التاجي(السخاوي، 1957م، 6/ 416؛ السمهودي، 1984م، 2/ 605).

وفي عهد الأشرف قايتباي أقام عمارة ضخمة بالمدينة المنورة لم تقتصر حدودها على المسجد النبوي فقط حتى قال له من حوله:" أما تترك لمن بعدك شيء يذكر به"(السخاوي، 1957م، 5/ 434)، فبدأ سنة 879هـ/1474م بهدم عقود المسجد التي في رحبته ناحية المشرق، وسقف الرواق، وبعض أساطين المسجد وجانب من سوره، وتم الإصلاح والتجديد حتى جدار المنارة السنجارية في السنة نفسها، وفي سنة 881هـ/ 1476م أشرف الأمير شمس الدين بن الزمن على عمارة أخرى للحرم الشريف شملت بعض الأروقة والأسقف ودهان السقف وإعادة بناء جدران الحجرة الشريفة، وكان السمهودي شاهداً على هذه العمارة وتناولها بالتفصيل (السخاوي، 1957م، 5/ 432- 434؛ السمهودي، 1984م، 2/ 605).

وفي سنة 886هـ/1481م سقطت صاعقة على المنارة الرئيسية بالمسجد النبوي فقتلت شيخ المؤذنين شمس الدين محمد بن الخطيب، وثقبت سقف المسجد وسقف الحجرة النبوية وشبت النار في سقوف وجدرانه وأبوابه واحترقت أكثر أجزاؤه بما فيها من مصاحف وكتب وخزائن وأخشاب قبة الحجرة الشريفة وسلمت القبة في صحن المسجد وبعض جانبي المسجد النبوي (السيوطي، 1968م، 2/ 51؛ السمهودي، 1984م، 2/ 633- 636؛ حافظ، 1996م، 114-115)، ووصل الخبر إلى القاهرة فحزن السلطان قايتباي كثيراً وأرسل إلى شاد العمائر في مكة شمس الدين بن الزمن وسنقر الجمالي بأن يسافرا للمدينة بالأدوات والرجال لإعادة بناء المسجد، فبلغ عددهم حوالي ثلاثمائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين، بالإضافة مائتي جمل ومائة حمار معهم الآلات والمؤن وعشرين ألف دينار، فأعادوا بناء المنارة والسقوف، وبنو قبة عظيمة فوق الحجرة النبوية على دعائم وعقود من الآجر بدلاً من الخشب، وتم البناء سنة 888هـ/1483م (السخاوي، 1957م، 2/ 150؛ السمهودي، 1984م، 2/ 179؛ ابن إياس، 1982م، 3/ 203، 329).

استمر الاهتمام بصيانة المسجد النبوي وترميمه بعد ذلك فبنى السلطان قايتباي المنبر ودكة المؤذنين من الرخام بدلاً من الخشب وبنى مدرسةً ورباطاً، وأرسل المصاحف والكتب(ابن إياس، 1982م، 3/ 329؛ حافظ، 1996م، 61)، ورغم كل هذه التكلفة الباهظة على العمائر إلا أنه حدث تشققات في قبة الحجرة الشريفة وميلان في إحدى المنارات فأمر السلطان المنارة المائلة وأعيد بناؤها وأُحكم من جديد حتى

لم يُر مثلها في المدينة المنورة(السخاوي، 1957م، 3/ 272؛ السمهودي، 1984م، 2/ 639 – 646).

لم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك بالحرم النبوي فقط بل شملت عنايتهم مساجد المدينة الأخرى بتجديد وترميم وتوسعة بعضها؛ وأول هذه المساجد مسجد قباء الذي تم تجديده سنة 671هـ/1272م وسجل ذلك على محراب الدكة فيه، ويوجد بالمسجد لوح منقوش عليه تجديد الناصر محمد بن قلاوون سنة 733هـ/1332م (السمهودي، 1984م، 3/ 810)، وفي سنة 840هـ/1436م أمر السلطان برسباي قاسم المحلي شيخ خدام المسجد النبوي بتجديد مسجد قباء، وعندما سقطت منارته سنة 877هـ/1472م جددها الشمس بن الزمن سنة 881هـ/1476م إبان فترة حكم الأشرف قايتباي وأصلح سقف المسجد أيضاً مع سوره الخارجي إلى آخر بابه الغربي، ومن محاسن مسجد قباء حديقة حسنة أنيقة جميلة جامعة بين العمارة والنضارة وفيها بركة بديعة محفوفة بالأشجار والأزهار ومفتوحة للفقراء والزوار وقد أنشأها السيد الشريف أحمد بن سعد الحسيني نقيب الأشراف بالمدينة، كما ابتني الشمس بن الزمن البركة والسبيل أمام المسجد(السخاوي، 1957م، 5/ 433؛ كبريت، 1997م، 140 – 145).

كما اهتم السلطان الأشرف قايتباي بتجديد سقف مسجد القبلتين سنة 893هـ/1487م على يد الأمير شجاع الدين الجمالي شيخ خدم المسجد النبوي كما جدد مساجد أخرى (السخاوي، 1957م، 3/ 272؛ السمهودي، 1984م، 3/ 842).

كذلك اهتم سلاطين المماليك بالمنشآت الخدمية في المسجد كالمطاهر أو المواضيء وكان أول ما أنشأه المنصور قلاوون سنة 686هـ/1487م ميضأة غاية في الاتساع عند باب السلام، ثم أنشئت مطاهر أخرى فيما بعد كالتي أنشأها الأشرف قايتباي في الرباط الذي أقامه (الفاسي، 1986م، 1/ 227).

2.3. عمارة البيمارستان بالمدينة المنورة.

عرف عن المدينة قديماً أنها أرض وباء نتيجة المناخ الحار والآبار المفتوحة، ولكنها لم تكن تسبب أمراض فتاكة وخطيرة نظراً لقلة عدد السكان وعدم تكدسهم في منطقة واحدة، إذ كانت مساكنهم متفرقة المزارع والفراغات، وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وظهور النبوي تنوعت عادات العلاج من الحجامة والكي والرقية، إلى استخدام بعض الأعشاب والنباتات والأدوية وغيرها من الطرق المختلفة؛ وقد مارس هذه المهنة كثير من الأشخاص، ولم يكن الأطباء يأخذون أجراً على علاجهم، وفي العصور من

العباسي إلى الأيوبي والمملوكي كان العطار يقوم بدور الطبيب والصيدلاني وبائع العطور، وكان لهذه المهنة أهلها الذين يتوارثون ممارستها في سوق العطارين، كأسرة ابن مشكور، وأسرة الشكليين (المديرس،2001، 100).

وإذا رجعنا للمصادر الأولية وجدنا أن مكة والمدينة عرفت البيمارستانات قبل العصر الأيوبي بسنوات طويلة، فقد كان الوزير الحسن على بن عيسي عام 302هـ/914م يهتم بأمر بيمارستان مكة والمدينة وأنفق عليهما من ماله(ابن أبي أصيبعة،2003، 3/ 59).

وكان الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وغيرهم يتسابقون في إنشاء البيمارستانات خدمة للمسلمين، ومنهم الخليفة المستنصر بالله العباسي الذي أمر بتشييد البيمارستان المعروف بالمستنصري شمال المسجد النبوي سنة 627هـ /1229م، ثم تتابعت عناية السلاطين المماليك بالناحية الصحية في المدينة المنورة، حيث قام الظاهر بيبرس بتجديد البيمارستان وأرسل إليه الأطباء وأمر بتزويده بالأدوية سنوياً(ابن شداد، 1994م، 300)، وأثبتت المصادر استمرار تأدية بيمارستان المدينة وظيفته العلاجية حتى وقت متأخر من ذلك العصر بدليل علاج محمد بن محمد بن ألب أرسلان السجلوقي فيه ووفاته به سنة 841هـ/1437م (السمهودي، 1984م، 2/ 695؛ السخاوي، 1957م، 1/ 65؛ ابن فهد، 1983م، 32/4)،

3.3. المشروعات المائية بالمدينة المنورة.

اهتم سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية يعاضدهم الأمراء والأثرياء والعلماء بتوفير مياه الشرب لأهل المدينة، وشمل ذلك حفر الآبار، وتعمير البرك والعيون، وإقامة السقايات والأسبلة، وقد ذكرنا بعض التجديدات والترميمات للآبار والعيون عند الحديث عن الزراعة في المدينة المنورة، ثم نستكمل المتبقي منها:-

عين الزرقاء: تقع جنوب غرب المدينة، وتستمد ماءها من عين الجعفرية، وتتصل بعدة آبار بواسطة قنوات تجمع الماء كله في مجرى واحد، ثم ينقسم هذا المجرى بدوره داخل المدينة إلى ثلاثة قنوات، تصب في ثلاث خزانات لإمداد أهل المدينة المنورة وزائريها بالماء، وفي سنة 560هـ/1164م تم بناء خزانات تحت الأرض، تصل إليها مياه الزرقاء عبر قنوات أنشئت لهذا الغرض، وكان السقاؤون ينزلون إلى هذه الخزانات بواسطة

سلالم، كما خصص عمالٌ للإشراف عليها وتنظيم مائها، وإيصاله إلى داخل المسجد النبوي ونتيجة سوء استعمال الماء، أمر الوالي بإخراج القناة خارج المسجد النبوي(عمر، 1980م، 126، 127)

وقد كان للمدينة في العصر الأيوبي موظف مسؤول عن عمارتها وتجديدها، وترميم وإصلاح ما تهدم من الحرم، وإصلاح وتوسيع مصارف المياه، لأنها كانت تتجمع حول المسجد كالمستنقعات وتنبعث منها روائح كريهة تسبب الأمراض، كما كان المصلون الذين يحضرون المسجد للصلاة يجدون مشقة وصعوبة في عبورها، لذلك تم حفر مجرى يمر بالقرب من أبواب المسجد، وبالتالي لم تعد تتجمع المياه أمام المسجد، وأزيلت البرك والمستنقعات (السمهودي، 1984م، 2/ 631،632).

وفي سنة 686هـ/1287م أصاب المدينة مطر شديد فتعرضت الزرقاء للخراب وكتب بذلك إلى الناصر محمد بن قلاوون من أجل إصلاحها لاعتماد أهل المدينة عليها(المقريزي،1934م، 1/ 737).

ثم توالت الترميمات والإصلاحات عليها وعلي غيرها من العيون كلما احتاج الإمر إلى ذلك ففي سنة 824هـ/1421م تم عمارتها أيام حكم السلطان ططر على يد عمر بن محمد المعروف بابن المزلق(السخاوي، 1957م، 5/ 342)، ثم جددها السلطان الأشرف قايتباي سنة 888هـ/1483م، وأشرف عليها شمس الدين بن الزمن (السخاوي، 1957م، 6/ 413) كما جدد الأمير ودي عيناً قديمة قبلي وادي قناة (السمهودي، 1984م، 3/ 1075)، وجدد السمهودي المؤرخ بئراً عند مسجد السقيا بعد اختفاء أثره(السخاوي، 1957م، 1/ 121)، علاوة على إنشاء السقايات، منها السقاية التي بناها ريحان الهندي أحد خدم المسجد النبوي (السخاوي، 1957م، 2/ 530؛ ابن شداد، 1994م، 219).

لم يقتصر الأمر على الاهتمام بالماء داخل المدينة فقط، بل شمل الطرق المؤدية إليها أيضاً، فقد أنشأ عمر الظاهر برقوق بركة كبيرة برأس وادي سالم في طريق المدينة لسقي الحجاج (ابن إياس، 1982م، 1/ 533)، كما أمر السلطان الأشرف برسباي 834هـ/1430م بإصلاح الآبار وأماكن المياة التي في طريق الحاج(ابن حجر، 1997م، 3/ 456).

4. الخاتمة:

اثبتت الدراسة أن النشاط الاقتصادي في المدينة لم يطرأ عليه تغيير كبير منذ العصر الأيوبي وحتى العصر المملوكي، فالنشاط الزراعي قام على أساس سد الاحتياجات الغذائية المحلية، والصناعات الحرفية كانت يدوية مثل: أعمال البناء والنجارة وصناعة الحلي والمنسوجات والصناعات الغذائية، وكلها تعتمد على مواد

خام محلية، أما التجارة فلم تكن واسعة ولم تزدهر كثيراً إلا بعد بروز ميناء ينبع في العصر المملوكي بديلاً لميناء الجار، فأدى إلى تحسن الأحوال الاقتصادية للمدينة المنورة، وأصبح هناك تبادل تجاري بمنظوره الأعم والأشمل سواء داخلياً أو خارجياً.

فانعكس ذلك كله على الجانب الحضاري فتطورت الحرف والصناعات المختلفة، وشهدت المدينة المنورة ازدهاراً تجارياً في مواسم الحج والعمرة بحيث كانت أسواقها عامرة بالسلع والبضائع المحلية والمستوردة.

كما عرف أهل المدينة التطور العمراني الذي صاحب انتشار التعليم في المساجد والمدارس والأربطة، وشهدت المدينة في العصر المملوكي اهتماماً بالغاً من سلاطين المماليك والأمراء وحكام الدول الإسلامية بالعمارة والبناء فيها، وشمل ذلك المسجد النبوي والبيمارستان، وامتدت مشروعاتهم حتى شملت المنشئات المائية، بهدف توفير مياه الشرب لأهل المدينة وزوارها.

5. المصادر والمراجع :-

أولاً: المصادر العربية:-

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم بن يوسف السعدي، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، الهيئة العامة للكتاب، ط1، (القاهرة، 2003م).
- ابن إياس، محمد بن احمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفي، الهيئة العامة للكتاب، ط1،(القاهرة، 1982م).
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، 1992م).
- ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، تحقيق: محمد زينهم، دار المعارف، ط1، (القاهرة، 2000م).
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (بيروت، د.ت).
- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، 1997م).
- ابن شداد، القاضي بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مكتبة الخانجي، ط2، (القاهرة، 1994م).
- ابن فرحون، عبد الله بن محمد بن فرحون اليعمري، نصيحة المشاور وتعزية المجاور، تحقيق: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط1، (المدينة المنورة، 1434هـ).

- ابن فهد، النجم عمر بن فهد، إتحاف الوري بأخبار أم القري، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، ط1، (القاهرة، 1983م).
- ابن النجار، محمد بن محمود بن الحسن، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، تحقيق: صلاح الدين عباس شكر، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط1، (المدينة المنورة، 2006م).
- الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ج2، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، 1422 هـ / 2002 م).
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، طبع ونشر: أسعد طرابزوني الحسيني، (القاهرة، 1957م).
- السمهودي، نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، ط4، (بيروت، 1984م).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابلي، (القاهرة، 1968م).
- الأصفهاني، عماد الدين أبو عبد الله بن صفي الدين أبو الفرج محمد، سنا البرق الشامي تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، ط1، (القاهرة، 1979م).
- الصيرفي، على بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج2، تحقيق، حسن حبشي، دار الكتب المصرية، ط1، (القاهرة،1971م).
- العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، ط1،(القاهرة، 1992م).
- الفاسي، تقي الدين محمد بن احمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ط 2، (بيروت، 1986م).
- الفيروز آبادي، مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب، المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق: حمد الجاسم، دار اليمامة، ط1، (الرياض، 1969م).
- القطب الحنفي، قطب الدين بن علاء الدين النهروالي، تاريخ المدينة، تحقيق: محمد زينهم عزب، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، (القاهرة، 1989م).
- القلقشندي، الشيخ أبي العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، دار الكتب المصرية، (القاهرة، 1914م).
- محمد كبريت الحسيني المدني، الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، تحقيق: محمد حسن محمد الشافعي، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، 1997م).

- المراغي، أبي بكر بن الحسين بن عمر، تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، ط1، (الرياض، 2002م).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة، دار الكتب القومية، (القاهرة، 1934م).

ثانياً، المراجع العربية والمعربة:-

- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ط1، (دار الفكر العربي، 2003م).
- أحمد ياسين أحمد الخياري، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، شركة دار العلم للطباعة والنشر، ط3، (السعودية، 1991م).
- جميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة للنشر، ط1، (جدة، 1985م).
- حسن أحمد حسن بركة، المدينة المنورة عصر المماليك الجراكسة، ط1، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، 2015م).
- حمد الجاسر، بلاد ينبع لمحات تاريخية وجغرافية وانطباعات خاصة، (الرياض،1967م).
- صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز، دار العربي للنشر والتوزيع، (القاهرة، (ب.ت).
- عبد الرحمن مديرس المديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي، مركز الملك فيصل للبحوث، ط1، (الرياض، 2001م).
- عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس، مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول، جامعة الملك سعود، ط1، (الرياض، 1982م).
- عبد الله محمد السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز ونجد، مؤسسة الرسالة، ط3، (بيروت، 1983م).
- علي بن حسين السليمان، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، دار حراء، (القاهرة، 1973م).
- على حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ط2، (المدينة المنورة، 1996م).
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، 2000م).
- محمد محمود خلف العناقرة، الحياة الاقتصادية في الحجاز عصر المماليك، دارة الملك عبد العزيز، (الرياض، 2006م).

الرسائل الجامعية :-

- حسن محمود حسن، الرسوليون والمماليك في الحجاز، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2000م.

- علي بن حسين السليمان، النشاط التجاري في شبة الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطي، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، 1974م.
- عائشة عبد الله عمر، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ماجستير غير منشور، كلية الشريعة الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 1980م.

المقالات المنشورة:-

- حسنين ربيع، البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ندوة تاريخ البحر الأحمر، جامعة عين شمس، 1979م.
- علاء محمد عبد الغني حسن، ميناء الجار واضمحلاله في القرنين 5و6هـ، مجلة المؤرخ العربي، ع 28، القاهرة، أكتوبر 2020م.

[1] – بيانات المرسل: د. إبراهيم بن علي الربعي، أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك ، قسم التاريخ والحضارة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .البلد: المملكة العربية السعودية، البريد الالكتروني: e.alrobei@iu.edu.sa